أمثلة من الترجمة

Alois Prinz
Ein lebendiges Feuer. Die Lebensgeschichte der Milena Jesenská

Beltz & Gelberg Verlag, Weinheim Basel 2016
ISBN 978-3-407-82177-5

صفحات 6-23

ألويس برينتس
نار حيّة. قصة حب ميلينا يسنسكا

ترجمة: إبراهيم مرازقة

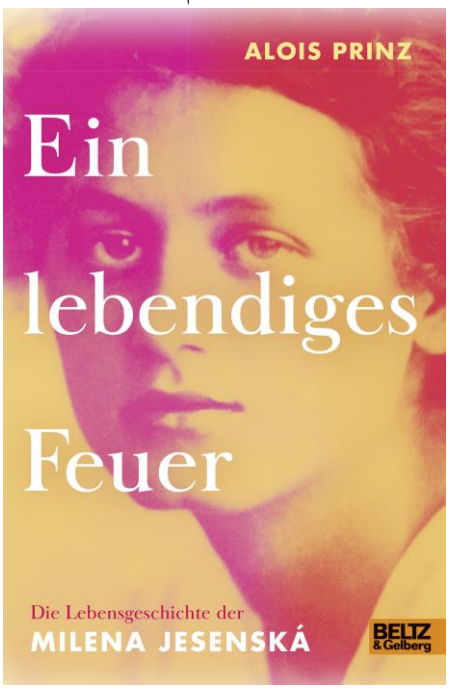

© 2017 Litrix.de

ميلينا من براغ

لم يبق في رأس ميلينا إلا الهباء. كانت الساعة الثالثة صباحًا في ذلك اليوم من شهر أيار/مايو سنة 1915. إذ بدأت الامتحانات الثانوية العامة الكتابيّة في اليوم التالي في ثانوية *منيرفا* للبنات في مدينة براغ، وقد شعرت أنها نسيت كل ما درسته، حيث أمضت ساعات مضنية في مراجعة مادة التاريخ والآن قد فرّ كل شيء من رأسها. ولم يختلف الأمر كثيرًا في حالتي مادتي الإغريقية واللاتينية. "راجعتُ المواد لسبع ساعات البارحة، غدًا الامتحان، ونسيت الآن *كل شيء*"، كتبت إلى معلمتها. "الآنسة بروفسور" – كما كانت تدعو ألبينا هونزاكوفا – المعلمة الوحيدة من بين طاقم المدرّسين التي كانت محطّ إعجاب ميلينا ومصدر ثقة بالنسبة لها. كانت تكتب الرسائل الشخصية إليها وأرادت باستمرار التحدث إليها عن مواضيع غير متعلقة بمواد التدريس. لهذا السبب خاب أملها عندما طلبت منها مدرّستها المفضلة الانتظام والتصرّف كما هو مطلوب في المدارس. كان ردّ ميلينا عليها أنها ستتصرف "بهدوء، بأدب وبسلاسة مثل فولينكورا وطالبات مثاليات أخريات. بكل صراحة؟ لم أدرِ أنك *أنت أيضًا* تحكمين على البشر بحسب *ذلك*."

كانت ميلينا تفضّل بدلًا عن الامتحانات أن تتحدث مع شخص ما عن أسئلة بسيطة جدًا، لم تجد عليها أجوبة لدى أحد. أما أمّها التي كان بإمكانها التحدث إليها عن أي موضوع شاءت، إذ توفيت قبل سنوات. وسادت بينها وبين والدها في البيت "مشاهد مرعبة". لم يعد يعرف يان يسنسكي – طبيب أسنان واستاذ جامعي – ابنته: تبدو ميلينا أنها تحوّلت بعد موت أمها من فتاة مُطيعة ونشيطة إلى كتلة غضب عنيدة، تحاول بكلّ قواها أن تجرِّح صيتَه. فقد بالغت في صرف أموال أبيها، صارت تسرق، تتعاطى المخدرات، تتسكع مع صديقتها في أماكن رديئة السمعة وجمعتها علاقات عاطفية برجال يكبرونها سنًا. حاول يان يسنسكي إخفاء انحرافات ابنته عن مرأى ومسمع المجتمع وتبييض صفحتها من الآثار المضرّة لأفعالها. كان أمله أن تتعقل ميلينا بالتالي وتمشي على درب الحياة الذي خطّطه لها. كان من المفروض بها أن تدرس الطب وأن ترث عيادته المزدهرة.

© 2017 Litrix.de

لم تدرِ ميلينا ماذا ستصبح. كانت تحب بكل حماسة الموسيقى، الكتب والصور التي أثارت الاشمئزاز والاستخفاف عند البعض. فتصويرها بسبب حبها هذا على أنها "عاشقة للفن والجماليات" ولا علاقة لها بالواقع، قد آلمها. إذ قالت ذات مرّة إنها تريد أن تعيش "حياة قريبة جدًا من الأرض". مع ذلك لم يُعقها هذا عن التبذير والبذخ إلى حد الإسراف والتفريط في كل نواحي حياتها، في الحب، في الصداقة، في اعتنائها بالآخرين. قوبل شغفها المفرط هذا غالبًا بقليل من التفهم. كانت بالنسبة للكثيرين سريعة الغضب والهيجان، بلا عقل، لا تطاق، صاخبة وجامحة. كانت مدرّستها، الآنسة الدكتورة، الشخص الوحيد الذي أخذها على محمل الجد ولم تخاطبها أبدًا بنبرة مُذلّة او جارحة. شكرتها ميلينا لهذا السبب عندما تخطّت كل الامتحانات في تموز 1915 بنجاح وبذلك انهت الحقبة المدرسية في حياتها. وقد وعدت مدرّستها كذلك بأنها سوف "تصل إلى شيء بعيد في الحياة، *بعيد جدًا*".

جلست ميلينا بِسنسكا بعد خمس وعشرين سنة من تخرجها من المدرسة في تشرين الأول/أكتوبر من عام 1940 في القطار الذي نقلها إلى معسكر الاعتقال في رافنزبروك. واتهمت بالخيانة العظمى لأنها كانت تعمل في مجلة غير قانونية في مدينتها ومسقط رأسها براغ التي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة جنود هتلر. لم تقدّم محكمة النازيين اي دلائل ضدها، وبالرغم من ذلك تم اعتقالها.

كانت ميلينا تعرج بعض الشيء، وبقيت هذه الإعاقة ترافقها منذ العملية الجراحية في ركبتها. بالإضافة إلى ذلك شعرت بالألم في يديها بسبب التحقيقات الطويلة في زنزانة باردة ورطبة. استلمت الملابس الخاصة بالمعسكر مثل كل المعتقلات الأخريات: سروال رمادي، قميص رمادي، معطف مخطّط، مئزر أزرق، منديل وقبقاب خشبي كعبه عالي. وقد خُيط رقم المعتقل الخاص بها على كُمّ فستانها الأيسر. كان الرقم 4714، وفوقه مثلث أحمر وهو إشارة إلى أنها معتقلة "سياسيّة".

استوعَبَت مجموعة من النساء التشيكيات في معسكر التركيز ميلينا، إلا أنهن سرعان ما ابتعدن عنها، عندما لاحظن أن ميلينا لا تشاركهن الرأي السياسي. لم تكن تعتقد أن كل شيء سيكون على ما يرام عندما تنتصر الجيوش الروسية على جيوش هتلر، ولم يكن الدكتاتور السوفياتي ستالين بالنسبة لها أفضل

من النازي هتلر. وازدادت الكراهيّة تجاه ميلينا عندما حاولت التواصل مع امرأة ألمانية، قضت وقتًا في المعتقلات الروسية. لقد التقت ميلينا بمارغريت بوبر-نويمان في ساعة التجوّل، حينما كان يسمح للمعتقلين بالتجوّل على الطريق الضيّقِ بين جدار المعسكر والحائط الخارجي للثّكنة. بالرغم من أن تدفق النساء إلى الأمام كان يدفعهما إلا أنهما بقيتا واقفتين تتحدثان. انبهرت مارغريت بوبر في الحال من "ميلينا من براغ"، كما قدّمت هذه نفسها، فقد أبهرها حب استطلاعها، فِكرها المستقل، أسئلتها الذكية وخاصةً حيويتها غير العادية.

روَت كلٌّ منهما قصة حياتها للأخرى خلال الجولات اللاحقة بجانب "حائط المبكى" – كما كانت تدعو ميلينا جدار المعسكر الذي ارتفع إلى علوّ اربعة أمتار – وخلال اللقاءات الليلية السريّة في الثّكنات. أطلعت ميلينا صديقتها على موت أمها المبكّر، سنوات الشباب العاصفة في براغ، على المعارك مع أبيها الذي أمر حتى بحبسها في مشفى للأمراض العقلية لكي يمنعها من الزواج من يهودي يكبرها بعشر سنوات، ولكن دون جدوى. حكت لها عن سنوات الزواج في فيينا، عندما كانت وحيدة وفقيرة، تعمل في حمل الحقائب في محطات القطارات، ثم كيف بدأت تكتب وتتحرر شيئًا فشيئًا من زواجها التعيس. حدّثتها عن حبها القصير للشاعر فرانتس كافكا، عن رجوعها إلى براغ، نجاحها كصحفية، زواجها الثاني، ابنتها يانا، عن أمراضها، هزائمها وأيامها السعيدة، وكيف أصبحت مناضلة في المقاومة السياسية.

كان الحزن يظهر على ميلينا كلما ذكرت ابنتها يانا أو "هونزا" حسبما كان الكل يدعوها. رأتها ميلينا مرّة واحدة فقط بعد الاعتقال. حاولت منذ تلك اللحظة يائسةً تقصّي ما حلّ بيانا ومن يعتني بها. أرادت أن تكون قريبةً منها؛ على أقل تقدير من خلال الرسائل التي بعثتها إلى براغ بعد خضوعها لفحص الرقابة: "ولو أن لي طفلةً تفكّر، تشعر وتكبُر، إلا أني ممنوعة من أكون معها. مسموح لي أن أحلم بها، أن أفكّر بها، أن أصلّي من أجلها. يمكنني أن أحمّل الغيوم تحيّاتي اليها، والله أعلم، إن كانت ستَصلها. [...] أفكّر كثيرًا بِكم كلّكم، أحيّكم كلّكم، سأكون دائمًا قريبةً منكم، وإلى الأبد. أنا بحالة جيدة، أنا ممتنّة جدًا لهذا العمل، إنّي بعافية وصحّة جيّدتين، لكن لا تنسوني أبدًا. أُقبّلكم، ميلينا."

لم تكن ميلينا على ما يرام ولم تكن بصحة جيدة. كانت يداها ورجلاها منتفخة من الروماتيزم وكانت تعاني من آلام شديدة في الكليتين. لكنها لم تتذمّر ابدًا وبقيت صلبة وعنيدة في معسكر التركيز. لم يكن تصرّف ميلينا بالنسبة لمارغريت بوبر–نويمان "ملائمًا للمعسكر". "كان مظهر وحضور ميلينا بمثابة احتجاج ضدّ نظام المعسكر"، كتبت في مذكراتها. "لم تسر بالطوابير الخمسة أبدًا، لم تكن وقفتها حسب التعليمات عند عدّ المعتقلين، لم تسرِع بمشيتها عندما كانت تؤمر بذلك، ولم تتملق المسؤولين هناك."

كان حضور وتصرّف ميلينا في المعسكر بالنسبة لشريكاتها في العذاب عونًا وسلوانًا. وقد دعاها بَعضُهن بال"زاريفا"، أي الحاكِمة، لأنها حافظت على كرامتها وكبريائها وظهرت بمظهر الحرّة في مكان تسيطر عليه المعاناة والموت والإذلال من كل الانواع. لم تدرك كثيرات ممن كنّ معجبات بقوة ميلينا أن صراعًا داخليًا بين قوىً متناقضةً جدًا دار في نفسها طوال حياتها. كان يدفعها حنين شديد إلى أشياء مختلفة ومتناقضة أحيانًا. وكانت القدرةُ على تقبّل الحياة كما هي قيمةً مهمةً بالنسبة لها. كانت ميلينا في المعسكر "انسانًا يفكر بواقعية"، قالت عنها لاحقًا المرأة التي شاركتها المعتقل، "لكن دائمًا وأبدًا حالمة وشاعرة. هناك بحسب ميلينا طريقان لعيش الحياة. إما أن يقبل المرء بمصيره، بما فيه من سعادة وتعاسة، وأن يكون مستعدًا لدفع ثمن الاغلاط والأخطاء. وإما أن يبحث المرء عن مصيره، لكن هذا البحث يتطلب الكثير من الوقت والقوّة، وهو يأتي على حساب الحياة. مَن يبحث بلا انقطاع فسيصبح بحسب ميلينا أفقر وسيفقد "الحس اليقيني بالأشياء" وسيفقد بالتالي الحسّ بالقيمة الذّاتية كذلك.

كانت ميلينا باحثة، لكنها فوق ذلك كانت عاشقة أيضًا. بحث فرانتس كافكا عن قُرب إنساني في رسائله اليها، وقد جمعته بها قصّة حبّ قصيرة وهو الذي نعتها بـ"النار الحيّة". لم يهمّ ميلينا شيئًا أكثر من الواقع الحاضر، وإن كانت المرأة التي تفهّمت خوفه من البشر. لو بقيت في بيئة كافكا لما وجدت طريقها الخاص ولما تحوّلت على هذا الطريق من الفاتنة القاتلة (femme fatale) إلى المناضلة في المقاومة السياسية. كان كل يوم من أيام الحياة أهم بالنسبة لها من الكثير من الرسائل والكتب. وعبّرت عن التزامها بهذه القناعة في كثير من مقالاتها، فقد كتبت في أحدها: "أحب الحياة، الحياة كلها

بسحرها، بروعتها وإشراقها، بكل مظاهرها وظواهرها، بكل صورها، بأيامها العادية وبأعيادها، بسطحيتها وبعُمقها".

عُيّنت ميلينا لتعمل في عيادة المرضى في معسكر التركيز رافنبروك. كان باستطاعتها رؤية بوابة الحديد الكبيرة من مكان عملها، البوابة التي كانت تفصلها عن حريتها. علّقت صورة لبراغ على الحائط، وبجانبها روزنامة صورت عليها نافذة مفتوحة على مصراعيها تطلّ على مشهد طبيعيّ لمنطقة جبلية. كتبت اثناء سكنها في فيينا مقالًا حول النوافذ، فقد كانت النوافذ تعني لها شيئًا خاصًا. ليس الأبواب، بل النوافذ هي "البوابة للحرية"، كتبت حينها. يبدأ العالم أمام النافذة. "لأن النافذة هي مصدر الأمل في الضوء، في غروب الشمس، في الأفق؛ النوافذ هي مصدر الحنين والأماني."

حب أبوي

ساد في شارع فويتكا في براغ أمام مدخل المدرسة الثانوية الأهلية *مينرفا* في ذلك اليوم من شهر أيلول/سبتمبر في عام 1907 شعور بالترقب المضطرب. كان اليوم الدراسي الأول. وقف آباء وأمهات فخورين بجانب بناتهم الأنيقات. وقد شدّ الأنظار زوج واحد بشكل خاص. كان ذلك الطبيب والبروفسور المشهور يان يسنسكي وابنته ميلينا ذات الأحد عشر ربيعًا. كانت للدكتور يسنسكي طلّة خاصة ومبهرة: طويل وعريض الكتفين، يرتدي معطفًا طويلًا يصل إلى الركبتين، قبعة اسطوانية على رأسه ونظّارة منفردة على عين واحدة. ظهرت بجانبه ميلينا الطويلة والنّحيفة جدًا هشة وناعمة. كان واضحًا للكل أن هذا الوالد فخور جدًا بابنته وكان يعير قيمة لأن تكون طلّتها باهرة منذ البداية، حيث فصلّت خياطة ثيابَ ميلينا خصيصًا لهذه المناسبة، فكانت ترتدي زيًّا رماديًّا وتعتمر على شعرها الكثيف المجدّل قبّعة قطيفة مع رباط ملوّن.

لكي تدخل البنات في ثانوية *مينرفا* كان عليهنّ تخطّي امتحانات في مواد الدين، اللغة التشيكية والرياضيات. لم يكن لدى يان يسنسكي أدنى شك أن ابنته سوف تتخطى هذه العقبة دون أي صعوبة.

لقد ذهبت خططه لمستقبل ميلينا إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فهي كانت وحيدته. إذ أن ابنًا له، واسمه كان يان أيضًا، وُلِد بعد ميلينا بثلاث سنوات، ولكنه توفي بعد بضع أشهر فقط. تعلّقت كل أماله منذ تلك اللحظة بميلينا. لقد أرادها أن تسير على خطاه بدراسة الطب. لم تكن هذه المهنة والسيرة شيئًا عاديًا بالنسبة لامرأة في ذاك الزمن. كانت الدّراسات العليا حينها حِكرًا على الرجال، وكان وصول امرأة إلى قاعات المحاضرات استثناء وإن كانت لدى هذه المرأة موهبة ملفتة للنظر بالإضافة إلى طموحٍ جامحٍ. ما كان عاديًّا بالنسبة لفتيات من عائلات برجوازية أن يدخلن المدارس الشعبية لأربع أو خمس سنوات، ثم تنتلقن إلى مدرسة خاصة للبنات، "ليسيوم". كنّ يدرسن هناك بعض اللاتينية والفرنسية. أما النتيجة فكانت – كما وصفتها لاحقًا يانا ابنة ميلينا – "دمى لطيفة للعرض"، دورها في الحياة هو الزوجة والأم ولكنها مزيّنة ببعض الثقافة. بدأ يتغيّر هذا الوضع بعض الشيء بوتيرة بطيئة في بداية القرن العشرين. أما عجلات التغيير في مملكة النمسا–المجر التي كانت براغ تابعة لها فكانت تدور ببطء أشد.

© 2017 Litrix.de

© 2017 Litrix.de

كانت ثانوية *مينرفا* للبنات سابقة لعهدها بكثير. عندما تمّ افتتاحها في عام 1890 بعد مطالبة عنيدة من قِبل "رابطة نساء مينرفا"، كانت أول مؤسسة من نوعها في أواسط أوروبا. لم يسمح لها بدايةً إجراء امتحانات إتمام المرحلة الثانوية ومُولت خلال إسهامات الأهالي، تبرعات ومنح. لم تعترف العاصمة الملكية براغ بمينرفا إلا في سنة 1914 وأقرّت انها ثانوية متخصّصة. أما عدد النساء في الطّاقم التدريسي فبَدأ يتزايد بعد مرور سنوات عديدة. عندما دخلت ميلينا الثانوية كانت قد التحق بعض خرّيجاتها بطاقم التعليم. كان المجتمع آنذاك يعتبر المدرّسات على أنهن نسويات وكنّ يُحسَبن في براغ على النساء "المجنونات بالكمال والتمام".

لم تكن *مينرفا* نقلة نوعية في مسيرة تحرير المرأة فحسب، بل كانت علامة سياسية كذلك. كانت تسود أجواء متوترة في الحياة اليومية في براغ بين الأقلية الألمانية والأكثرية التشيكية. كافحت الأكثرية التشيكية من أجل تحقيق حقوقها وأرادت إثبات أنها لا تتأخر بشيء عن الأقلية الألمانية. فقد شقّت هذه الثانوية أمام الشابات طريقًا إلى التخرج بشهادة ختام الثانوية، التي منحتهن تعليمًا حداثيًا للغات حيّة مثل الانجليزية والفرنسية بالاضافة إلى التعليم الكلاسيكي للغات اللاتينية والإغريقية. فتفوّق التشيكيون من خلال هذه المدرسة حتى على الألمان الدؤوبين على الثقافة والتعلّم. وبناءً عليه تم إشعار البنات هناك أنهن ينتمين إلى مدرسة خاصة وإلى نخبة.

نجحت ميلينا بامتحانات القبول وانضمت إلى خمس وثلاثين فتاة أخرى في الصفّ IA. فأصبحت بذلك "منرفيَّة"، إحدى البنات اللاتي قوبلن في براغ بخليط من الإعجاب والتشكيك. أما إلحاق يان يسنسكي ابنته بهذه المدرسة فذلك يقول الكثير عنه. أراد مَنح ابنته الوحيدة أفضل تعليم ممكن، كما أراد لها أن تترعرع في بيئة تشيكية. فقد كان تشيكيًّا جسدًا وروحًا وكان يحمل الضغينة للألمان واليهود. كان يان يسنسكي فخورًا جدًا بأصوله وقد برهن أنه كشخص ينتمي إلى شعب صغير ومضطهد قادر على تحقيق نجاحات باهرة. كان على ميلينا أن تمشي على الدرب نفسه، ووفّرت مينرفا لها هذه الفرصة. كان

عليه بالمقابل أن يتقبل تعرّض الشابات في تلك المدرسة إلى أفكار تقدميّة وحداثيّة تتعارض مع أفكاره المحافظة.

كان مدير المدرسة يوزف غريم يتوقع قُدوم الطالبات الجديدات بمرافقة الأهالي في اليوم الدّراسي الأول. جاءت ميلينا بصحبة والدها فقط وبقيت أمها في البيت. كانت تعاني من المرض ولزمت السّرير لترتاح. بالإضافة لذلك، لم تكن أمور الزواج بينها وبين يان يَسنسكي على ما يرام. لقد كانا ببساطة شخصين مختلفين جدًا. فكان الأب من جهة مُفعَم بالصحة والعنفوان، والأم من جهة أخرى حنون وكثيرة المرض. والسبب الوحيد في استمرار الزواج بين هذين الشخصين غير المتكافئين هو العناية والاهتمام بالبنت الموهوبة. كانت تقف ميلينا بينهما كمن يقف بين عالمين مختلفين. ومع التحاقها *بمينرفا*، فُتِحَت أمامها أبواب عالم جديد، أتاح لها تطوير شخصيتها.

ترعرع يان يسنسكي مع سبعة أشقاء، معظمهم من البنات، في بيت في حيّ مالا سترانا (أو كلاين-زايته) في براغ، والذي يقع غرب نهر المولداو وأسفل القلعة. كان والده الذي حمل نفس الاسم رجلًا ذا موهبة في العمل اليدوي وحسّ فنّي وكان يحلم طوال حياته بأن يصير غنيًّا لينتقل مع أسرته إلى بيت فسيح وفخم. ولكن كل المشروعات التي بدأها يان يسنسكي الأب لم تأتِ بالنجاح المأمول. فشل في إدارة مطبعة كما فشل في ورشة لأخشاب الشجر. أما خطته لبناء مشتل لتزويد حدائق براغ بحُلّة من الزهور التي لم تعرفها من قبل فبقيت في مراحلها الأولية. واضطر بالتالي إلى العمل تاجرًا متجوّلًا لإعالة أسرته والتخلّي عن حلمه بحياة رغيدة ومنزل كبير.

لم يكن تقدير يان الابن لوالده كبيرًا على الأغلب ولم يُرد الابن، الذي ولد في 5 آذار/مارس 1870، أن تصل به الأمور إلى ما وصل إليه أبوه من فقر وفشل. ومع ذلك فقد كان الأب قادرًا على إلحاقه بمدرسة ثانوية، قدّمته للامتحانات النهائية. يبدو أن الابن عزم النيّة مبكرًا جدًا على عدم المراهنة على أفكار غير واضحة في مجال الأعمال، بل على تحقيق ثقافة وتعليم عالٍ لكي يمارس مهنة رفيعة ومعتبرة. قرّر دراسة الطب. وبما أن المعونة من البيت لم تكن متوفّرة، كان عليه أن يجد المال أثناء دراسته العليا.

فقد كان يعرض الدروس الخصوصية، ولأنّه كان موسيقيًّا ويعزف الكمان بشكل مقبول، كان يسلّي الناس في حانات ومطاعم براغ. ومن الممكن أيضًا أنه كان يجرّ حقائب المسافرين الثقيلة في محطة القطار المركزية.

أنهى يان يسنسكي دراسته بوقت قصير جدًا بنشاط لا يفنى وإرادة حديدية، وأراد التخصّص بعد ذلك بمجال طبّ الفم والأسنان. كان مطلوبًا منه لهذا الهدف دراسة عليا إضافية وحتى المكوث في خارج البلاد. لم يكن المال الذي حصّله من عزف الكمان وجرّ الشنط كافٍ لهذا الغرض، إذ أنه كان باهظًا جدًا. هل كانت الحاجة الماديّة والخوف من تعثر إكمال حياته المهنية الاسباب التي دفعته للبحث عن زوجة؟ كانت تلك أسبابًا مألوفًة ومقبولة اجتماعيًّا لعقد القران والزواج في ذلك الزمان. فكان الشباب الطموحون ولكن المعدمون ماديًّا قادرين على التقدّم في حياتهم فقط من خلال الزواج بقرينات ثريّات. فكان والد فرانتس كافكا، هرمان كافكا، قادرًا على افتتاح حانوت للبضائع الفاخرة في براغ لأنه تزوّج بحسب هذه العادة من يولي لوفي، وكانت امرأة من بيت ثري، وبهذا مكّن الزّواجُ ابنَ الجزّار اليهودي الفقير من الترقّي على السلّم الاجتماعي والمهني بشكل باهر.

وجد هرمان كافكا، الذي كان يكبُر يان يسنسكي بعشرين عامًا زوجة من خلال خطّاب. أما كيف عثر يان يسنسكي على زوجته ميلينا هيزلاروفا، فذلك غير معروف. فكانت هيزلاروفا بنتًا لثريّ عَمِلَ مفتش مدارس في المناطق الريفية قبل انتقاله مع أسرته إلى براغ، وسبق ذلك تعرّف يسنسكي عليها ببضع سنوات فقط. كانت ميلينا هيزلاروفا جميلة ويانعة، وربما الأهم من ذلك أنها كانت تحمل معها مهرًا معتبرًا. استأجر الزوج شقّة في حيّ جيجكوف الذي كان في الماضي قرية مستقلة ولكنّها اصبحت في حينه جزءًا من المدينة حيث كانت أغلبية السكان من العمّال وأسعار إيجار الشقق مناسبة. ترك يان يسنسكي زوجته في سنة زواجهم الأولى لوحدها لبعض الوقت وانتقل إلى باريس ليكمل دراسته. واضطرت حتى في فترة حملها لاحقًا أن تبقى لوحدها لأسابيع أو حتى أشهر، وأن تدبّر أمورها لوحدها أو بمساعدة والديها، لأن زوجها كان يوسّع معارفه المهنية بإشراف إستاذ جامعيّ مشهور في برلين. ولِد الرضيع في 10 آب من عام 1896. لو كان صبيًا لسمّيَ يان كذلك. ولكنها كانت بنتًا، ولذلك سمّيت كأمها "ميلينا"، ومعناه "الحبيبة" او "المُحِبَّة".

كان والِدا ميلينا او "ميلكا"، حسبما كانا يسميانها أيضًا، يحبانها، ولكن كلّ على طريقته. كانت تعيش مع أمها بودّ حميميّ وهادئ، كان الأب يتدخّل فيه أحيانًا ليربّيها. كان على ميلينا مخاطبته بصيغة الاحترام وتقبيل يده عند التحية. كانت ميلينا دون شك تخاف هذا الرجل العظيم، الذي اعتبر الضرب شيئًا مفهومًا ضمنًا في عملية التربية. لكنها لم تكن قادرة على التوفيق بين بعض الخِصال في تصرفات الأب وبين تصرّفه العام. إلا أن هذه الخصال كان لها أثر على شخصية ميلينا لاحقًا، عندما أصبحت امرأة بالغة، وكان من شأنها خلقِ قُربٍ بينها وبين الأب، مختلفٍ عن قُربها من الأم. انطبعت في ذاكرة ميلينا حادثة حصلت وهي في الثالثة من العمر، كانت تتذكرها كامرأة بالغة: كانت تجلس مع أمها لوحدهما في غرفة، عندما دخل الأب فجأة وطلب منها مغادرة الغرفة لأنه أراد محادثة الأم بموضوع لم يكن المفروض بها سماعه. انصاعت ميلينا للأمر فورًا. لكن بعد أن أغلقت الباب وكانت بطريقها إلى المطبخ، فُتح الباب خلفها مرّة أخرى. لقد شكّ والدها بأنها تتنصت من خلف الباب. عندما أدرك أنه أخطأ الظن ورأى ميلينا تسقط على الأرض من الرُعب، قام بعمل غير متوقع: "أدركتُ أنه ظنّ بي، وبدأ شيء مؤلم ومدمّر يتفشى في قلبي — وأدرك الأب أني أشعر بذلك وأن عليه فِعل أو قول شيء؛ وقد قام بفعل جريء جدًا: لقد مشى نحوي بخطى كبيرة وجادة، مدّ يده نحوي وقال: 'سامحيني من فضلك، لن أظن بِك سوءًا بعد اليوم أبدًا.' فصار القلب المجروح بين لحظة وأخرى فخورًا وحرًا. وقف الأب هناك وقفة عزّ وعدل، وعلّمني في تلك اللحظة أشياء قيّمة ونفيسة."

© 2017 Litrix.de

تزامن ذلك مع وصول مولودٍ آخر إلى حضن العائلة، فكان يان الصغير حافظًا لجذع السلالة الذي تمنى يان يسنسكي وصوله دائمًا. وقد كان لهذا الصبي أن يأخذ جلّ اهتمام الأب وعنايته، وذلك على حساب ميلينا لو لم يمت مبكّرًا. كان موته غامضًا. ادعت يانا بنت ميلينا، لاحقًا أن سبب موت الطّفل كان صرامة جدّها المريرة. لم تستطع زوجته ارضاع الطّفل ويبدو أن يان يسنسكي منعها نهائيًا من الاستعانة بمُرضعة. كان يتوجب على ابنه اثبات أنه قادر على البقاء بدون هذه المساعدة. ولكنه لم يثبت ذلك. فقد رعته خادمة لمدة ما، ثم مات. هل كانت المبادئ أهم بالنسبة ليان يسنسكي من حياة وحيده، حتى إن كان ضعيف البنية؟ على أي حال، لم تضطر ميلينا الصغيرة بعد ذلك أن تلعب دور الراعية لأخٍ مفضل عليها. لو حدث ذلك لأخذت حياتها منحىً آخر. لكنّها بقيت الابنة الوحيدة وبذلك كان عليها حَمل عبء التوقّعات الأبوية لوحدها.

أنهى يان يسنسكي في هذه المرحلة دراسته وحصّل لقب الدكتوراه في الطب. عمِل مساعدًا في الجامعة بشكل مؤقت، آملًا أن يصبح أستاذًا جامعيًا لاحقًا. لكنه لم يكتفِ بذلك. أراد افتتاح عيادة خاصة به لطبّ الأسنان بواسطة مَهر زوجته، وبقدر المستطاع في أفضل المناطق في مركز براغ. بالإضافة لذلك، احتاجت العائلة إلى منزل جديد يلائم مكانتها الاجتماعية المستقبلية. كانت الشقة في عمارة "الصقر الأسود" في زُقاق آيزن حَلًا مؤقّتًا فقط. كان موقعها جيدًا، إذ كانت قريبة من الجامعة، ولكنها لم تلائم موقع عيادة. ولكن في زُقاق أوبست القريب تم إنشاء عمارة جديدة وكبيرة بقُرب ساحة فنتسل، وجمعت العمارة ما بين الغرف التجارية الملائمة لعيادة وما بين شقق سكنية في الطوابق العلوية لأصحاب الادعاء والأُبّهة. انتقلت عائلة يسنسكي بعد عام فقط، في 1902، من زقاق آيزن إلى زقاق أوبست. كانت عمارة ذات خمسة طوابق على طراز الآرت نوفو، مدخلها عبارة عن بهو ضخم، نوافذها ملوّنة، درجها مزيّن بألواح خشبية، وحوائطها ملبّسة بالرخام. أنشأ الدكتور يسنسكي عيادة الأسنان في الطابق السفلي، واستأجرت العائلة شقّة واسعة في الطابق الخامس.

كانت العمارة في زقاق أوبست تقع على تقاطع الشرايين الرئيسية للمدينة، شارع غرابِن وساحة فنتسل، وبذلك على الحد اللامرئي الذي يفصل بين عالمي القوميتين المتعايشتين في المكان. فبينما كان التشيكيون يتخذون من ساحة فنتسل مكانًا لمعاملاتهم، كان غرابن المكان المركزي للحياة التجارية

والاقتصاديّة للألمان بمن فيهم من اليهود أيضًا. فتواجدت في الغرابن مطاعم، مقاهي، متاجر للكتب وفنادق كان يفضلها المجتمع اليهودي–ألماني. كان يُقام الـ"كورسو" في كل يوم أحد في هذه المنطقة، وهو عبارة عن تمشي منظم بحسب طقوس تصوّر المكانات الاجتماعية والعلاقات الخاصة للناس. فإنّ مَدى إنزال القبعة عند التحية مثلًا أو البُعد عن الشخص المُحيّا عند إلقاء التحية هي أشياء تعبّر كثيرًا عن علاقة المُحَيِّي بالمُحيّا. لم تكن تصرفات التشيكيين تختلف كثيرًا في ساحة فنتسل، حيث كانوا يترددون على المتاجر، حانات النبيذ والمقاهي. اتخذت شركة التأمين *أسكرزيونه جنرالِه* موقعًا في منطقة ساحة فنتسل أيضًا، بالقرب من شارع أوبست، وقد وُظِّف منذ خريف 1907 في هذه الشركة خريج حصل للتو على شهادة الدكتوراه، وهو فرانتس كافكا. فلو نظرت ميلينا في تلك الأيام من خلال نافذة شقّة والديها لرأت ربما فرانتس الشاب مهرولًا إلى عمله كل صباح قبل الساعة الثامنة، أو خارجًا في أيام العطلة من *إلدورادو*، وهي حانة نبيذ في قبو قَصر يقع في زقاق أوبست.

© 2017 Litrix.de